

اجتهادات عندما طعن الفيلسوف

كم من مثقفين أُغتيلوا، أو تعرضوا لمحاولات اغتيال، من جانب متعصبين أو متطرفين دينياً. لا يستطيع المتعصب أو المتطرف استيعاب أفكار تقدمية تهدف إلى فتح الباب أمام نهضة تعتمد بالضرورة على المعرفة. عقله المغلق الخاوي لا يمكنه من التمييز بين الصالح والطالح. يتطلب هذا التمييز فهما يفتقده، فيبدو له ما لا يفهمه، أو ما يُعدّ جديداً غير مألوف لديه، كُفراً أو تجريفاً. وليست هذه ظاهرة جديدة في عصرنا الراهن. كما أنها لا تقتصر على دين دون غيره. تعرض الفيلسوف المبدع باروخ سبينوزا لمحاولة اغتيال في منتصف القرن السابع عشر بسبب رؤيته الفلسفية لله والكون. طعنه متعصب بخنجر لذي خروجه من أحد مسارح أمستردام عام 1656. ولكن الطعنة مزقت معطفه، ولم تخترق صدره. لم يكن سبينوزا ملحداً أو كافراً بخلاف اعتقاد مازال شائعاً عنه حتى لدى بعض الدارسين غير المدققين. ولم يكن طرده من محفل التلمود التوراتي بسبب إنكاره اليهودية، أو الأديان عموماً، بل نتيجة شجاعته في مواجهة المتعصبين أو الأصوليين في هذا المحفل. كانت أفكاره ثورة في التفكير الفلسفي، خاصة في قضايا الدين والله والكون والوجود الإنساني والأخلاق. وتقترب هذه الرؤية من بعض تجليات التصوف الإسلامي، إلى حد أن بعض دارسيه النابهيين يعتقدون أنه اطلع بطريقة ما على تراث محيي الدين بن عربي، وأبو عبدالله الحلاج، اللذين مازال الاتهام بالكفر يلاحقهما حتى اليوم في أوساط المتعصبين والمتطرفين. رأي سبينوزا الله في الطبيعة أي في كل ما يحيط بالإنسان، ونظر إلى الأديان بوصفها

وسيلة للارتقاء الروحي الذي يتجاوز الطقوس، وآمن بأن من لا يري الله في عمل طيب يغيث ملهوفاً أو يساعد محتاجاً لا يمكن له أن يجده في أي من هذه الطقوس. فالله، عنده، بكثير من الاختزال، هو الجوهر الواحد والوحيد الحقيقي في الكون. وفي هذه الرؤية نوع من الروحانية يتعذر إدراكها دون تأمل مفهومه للكون، وهو ما قال عنه عالم الفيزياء الكبير أينشتاين إنه يمثل الفضيلة المشتركة بين من يسعون إلى بذل جهد روحاني عميق.